وليدة عتّو



قصص قصيرة

وليدة عتّو

جرس الهاتف

مجموعة قصصية

أسم الكتاب: جرس الهاتف

تأليف: وليدة عتّو

الطبعة الأولى 1999

تنفيذ: دار بترا للنشر والتوزيع

دمشق هاتف 8815208

الإهداء

إلى شمعة الفكر الذي احتضن فكري وكان لي دافعـــــاً للتحليق والاستمرار إلى ابن أخي أكرم.

أهدي هذا الكتاب

وليدة عتّو

روح تائهة

كانت تائهة خائفة، لا مكان لها ولا زمن يعترف بها؟ ولا بيت يؤويها أو يد تحتضنها، ولا وجود لها سارت طويلاً طويلا ولا تدري إن كانت حافية أو منتعلة حذاء ، فهي كالمخمورة أو كالمجنونة بل كأنها سكرانة تترنح يمنة ويسرة تكاد تسقط في كل خطوة تخطوها فلا يصل إلى سمعها أي.. شيء سوى بعض الصرخات التي تصدر عن قلبها وهو يستغيث.

كانت الصرخات مدوية أحياناً وأحياناً تكون بشكل أنات حزينة ثم يتلاشى الصوت رويداً رويدا حتى يختفي ويختفي مع اختفاء إحساسها بمن حولها.

فهي تبدو حاقدة تارة ومستسلمة تارة أخرى ثم تنتابها نوبات جنون فلا تدري أين هي وماذا تفعل قطعت مسافات طويلة وهي على هذه الحال العيون تفترسها تنظر إليها بشماتة والعيون قاسية تكاد تمزق جسدها وتدخل إلى أعماق قلبها لتفتح فيه جرحاً جديداً راحت تعدو بكل قوتها لأنها أحست بالنار تضطرم حولها فحاولت الهروب منها قبل أن تلتهم ما تبقى منها تعدو مشعثة الشعر ذارفة الدموع بحرقة وكأنها تريد أن تطفئ اللهب الذي يلاحقها وتكاد تذيب قدمها بل تكاد تلفها بسياطها وتصهرها كما يصهر الحديد في بيت اللهب.

سارت بليل مظلم على جانب ضفاف بردى، اجتازت سفوح قاسيون واخترقت روابي الزبداني وتسلقت مرتفعات بلودان وهي تعلو بكل قوتها تنظر خلفها كل عدة خطوات لترى ما إذا كانت ألسنة اللهب ما زالت.. تطاردها أم ابتعدت عنها لكنها تجد النيران تلاحقها بسرعة حتى تكاد تلامس جسدها.

وفي إحدى الاستراحات خارت قواها ارتمت فوق كرسي واهنة، مبعثرة الشعر دامعة العينين، فراحت تنظر حولها بصمت ثقيل فوقع نظرها عليه فراحت تتأمله سرحت به، وبدأت الخيالات والأفكار تتشابك في رأسها، فرأت أمام عينيها للمتلئتين بالدموع أشياء كثيرة منها تعرفها ومنها لا تعرفها.

وكان ينظر إليها بعيون حانية تشع حباً وحناناً وبسمة لطيفة تحمل الراحة والأمان.. تشع فوق شفتيه فشعرت بأنها وجدت نفسها الضائعة.

فقد أيقظ في مشاعرها الإحساس، وأعاد إلى رأسها الفكر الضائع، حاولت أن تتكلم فلم تستطع راحت تتأمله بصمت، وفجأة قالت له بصوت هامس من أنت؟

قال لها وابتسامة أمان تطوف فوق شفتيه: أنا الوعاء الكبير الذي سوف تصبين فيه متاعبك قالت له وكأنها لم تسمع ما قال: من أنت؟

لفها بنظرات حنان وقال لها: أنا شاطئ الأمان الذي سترسي عليه سفينتك التي تتقاذفها الأمواج.

قالت له: لماذا أتيت؟

قال: لألف روحك بالحرير وأحملها معـــي إلى عـــالمي البعيد فلا تصل إليها النيران التي تطاردك.

قالت له: ولكني منذ سنين طويلة وأنــا أركــض حافيــة القدمين، ممزقة القلب تائهة الفكر والنار تلاحقني ولم تأتِ لنجدتي.

قال لها: كنت أجوب قارات العالم راكضاً خلفـــك، أبحث عنكِ في طبقات الأرض وكواكب السماء فتشت بـين جميع النجوم وبعد عناء طويل وتعب شديد أنهك قواي، وبعد لهفة وشوق عثرت عليك، وجدتك فوق في أعلى طبقة مـــن الفضاء. فسكنت نفسي قربك، وأطلقت روحي لتكون غلافا لروحك كي لا تطالكَ يد عابثة.

قالت له: وهل تستطيع حمايتي؟ هل تستطيع إطفاء النار التي تلاحقني؟

قال لها: حبي لك سوف يطفئ براكين العالم.

قالت له: كلامك غريب، وأنت غريب لا تعرف هــذا العالم، ولم تر فظائعه.

قال لها: ولكني أعرف نفسي، وأعرف مقدار ما تحملــه من مشاعر وهذا يكفي.

قالت له بتعجب: لماذا تفعل هذا بي؟

قال لها: لأنّي وجدت روحاً هائمة في عــالم النظافــة والرقي والشاعرية منذ زمن قبل أن أراك.

قالت له: .. والآن ماذا تريد؟

فلم يجبها هذه المرة وإنما أمسك بيدها وأنهضها عن المقعد، وراح يعدو بها راكضاً إلى البعيد البعيد حيث لا يوجد نار وألسنة لهب تحرقها ولا تطولها يد عابث.

وهنا اخترق سمعها صوت نسائي من المطبخ يناديها فهزت رأسها وكأنها غارقة في حلم فنظرت حولها وأمامها وإذا في يدها القلم وأمامها ورق كتب عليه شبه حلم بعيد عن واقعها كثيراً فهمست يا إلهي أني أحلم وأنا يقظة.

مصرع قلب

الزمن يمضي وعجلته تدور والناس تدور مع هذه العجلة السريعة.

فمن واكبها امتطاها وأخذ بزمامها ومن تخلف عنـــها طحنته برحاها، ونهشته أسنانها، هكذا أصبح قانون الحياة.

لا مكان للضعيف إلا بين الأقدام يداس عليه بها وكأنــه قشة حقيرة تتقاذفها الرياح متى تشاء وكيف تشاء حتى عندما يستهلك هذا الإنسان لا يكافئ على خدماته أو على نضالــه، بل يرمى كأنه كأس خمر فارغة رشفت ثم رميت بلا حسـاب ولا رحمة ليأت آخر فيملأها من جديد ثم يعود فيرميها.

هكذا فلسفة الحياة اليوم بكل تطورها اقتضت أن يكون الضعيف كنعجة تتلوى بين يدي ذابحها مـــن الألم والقـــهر ومقاربة الموت.

قوانين الإنسان حددت مسار بطلة هذه القصة وجعلتها تسير في طريق لا ترغب به، قذف القدر بها إلى حمم من الجحيم.

لقد ولدت في مكان قذر، وانتمت إلى شريحة من الناس لا تحس بشرف الانتماء إليهم ولكن ماذا تقول وتفعل وقـــد وجدت نفسها فرداً من هذه الشريحة.

إنها سمر الملقبة بسمورة نجمة ملهى النجـــوم ومعبـــودة رواد هذا الملهى الذي تشدو به كل يـــوم حـــتى الصبـــاح، وتسكر الساهرين، وتسلب ألبابهم بكلماتها الرقيقة، وكـــان الساهرون يقفزون من خلف طاولاتهم وهم يتصـــايحون طربـــاً ويلهبون أكفهم بالتصفيق، ويسرع المتبـــارون إلى «البســـت» ليمطروها «بالنقطة» وبأصناف متعددة من النقود ترمى عليـــها وتداس وكأنها قمامة. غير أنها لا ترى أحداً من هؤلاء المعجبين.

إنها تؤدي «نمرتها» وكأنها تقوم بعمـــل شـــاق تريـــد الخلاص منه بسرعة كي تعود إلى بيتها لتقوم بفرض الصلاة.

إن هؤلاء المخمورين يثيرون قرفها. كانت دائماً تسبح مـــع أحلامها وأمانيها بأن تكون سيدة بيت لها زوج وأولاد تمضـــي وقتها في خدمتهم، ولكن من أين لهذا الحلم أن يتحقق وهي تعمـــل في ملهى ليلي وأهلها يجبروها على هذا العمل. فكـــانت هـــذه الأحلام ترافق خيالها دون أن يطرأ على حياتها أيّ تغير أو تبدل.

وفي إحدى ليالي الصيف دخل الملهى رجل في الخمسين من عمره وبرفقته شاب في الخامسة والعشرين مـــن عمـــره، وسيم الشكل، جميل الوجه، فجلسا علـــى طاولـــة قـــرب «البست» فقطعت سمورة أغنيتها كالعادة ورحبـــت بهذيـــن الوافدين الجديدين ثم تابعت غناءها وهي تمطـــر الســـاهرين بالتحيات موزعة ابتسامتها على الجميع وخصت هذه الطاولة باهتمام وابتسامات أكثر، وسلطت نظراتها على ذاك الشـــاب الأشقر ولكنه ظن بأن تلك النظرات خاصة بخاله الذي ألهـــب

كفيه بالتصفيق، وجرح حنجرته من شدة الآهات التي كان يطلقها إضافة إلى رمي المزيد من النقود على سمورة ولكن هذا لم يمنع الشاب من استراق بعض نظرات الإعجاب إلى تلك المطربة.

وعندما ضم ذاك العجوز طوقاً من النقود ومن فئة الخمسمائة وأعطاها لفادي قال له: علّق هذا الطوق في عنق سمورة.

فرح فادي وتقدّم من المنصة، واقترب من سمورة بخطوات هادئة فتوقفت عن الغناء ريثما علق فادي الطوق في عنقها ثم عاد أدراجه إلى طاولته وراح يوجه نظراته إليها وهي تبادله نفس النظرات.

وعندما انتهت السهرة في ساعات الصباح الأولى، خرج الاثنان، وقبل أن يبتعدا عنها ودعها فادي بنظرة حب حالمة وكأنه يقول لها: سوف أعود غداً، ثم تواريا عن أنظارها عادت سمر إلى بيتها مضطربة النفس، مشغولة البال، تتصارع الأفكار في رأسها حيث اختلطت الفرحة في داخلها مع الخوف من أن لا يعود.

لم تستطع النوم تلك الليلة، وراحت تنتظر قدوم الليل بفارغ الصبر، وهذه أول مرة في حياتها تستعجل قدوم الليل بهذا الشكل الجنوني، وعندما جاء موعد السهرة ذهبت قبل الموعد بنصف ساعة علها تراه، غير أن ظنها قد خاب فلم تر أحداً.

وجاء موعد «نمرتها» واعتلت المنصة وراحت تغني وهي شاردة الفكر، تائهة الروح تبحث بين الساهرين عن ذاك الشاب الذي أضرم في قلبها شعلة من النار وذهب دون أية كلمة.

ولم تطل حيرتها، فقد رأته قادماً مع العجوز من باب الملهى كشعاع جميل أضاء الدنيا من حولها فقطعت أغنيتها وحيته مع رفيقه العجوز تحية خاصة، ورحبت بهما ترحيباً حاراً لفت أنظار جميع الساهرين، وأشعل نار الغيرة في قلب المعجبين، فسارا إلى نفس الطاولة وكأنها معدة خصيصاً لهما حيث بقيت الطاولة فارغة رغم ازدحام الملهى وكأن صاحب الملهى يعلم بأن هذا العجوز المبذر سوف يعود مرة أخرى، فنظرت «سمورة» إلى الشاب نظرة فيها معان كثيرة وأعادت التحية مرة أخرى له ولرفيقه، ومرة أخرى خاصة به ولقبته بالأشقر، فابتسم لها بينما راح صاحبه يخرج النقود من جيوبه ويملأ بها صينية من الفضة كان قد طلبها من النادل ثم أعطاها لفادي قائلا: انخفض وانثر هذه النقود على المطربة، فنهض فادي وتقدم منها وراح ينثر عليها النقود فتساقطت كحبات المطر في ليلة شتاء عاصفة، فاندهش البعض ودخل الغيظ إلى قلب البعض الآخر خاصة الضيوف القادمين من الخليج، وقد راح كل واحد منهم يتسابق إلى رش النقود وهكذا حتى امتلأ صندوق الملهى بجميع أنواع النقود.

انتهت وصلة المطربة سمورة المعشوقة فانصرفت إلى بيتها ثم انصرف رواد الملهى. عاد فادي مع خاله إلى الفندق، وراح كل منهما يفكر بالطرف الآخر. سمورة التي لم تعرف الحب في حياتها راحت تفكر بهذا الوافد الجديد الذي خفق له قلبها منذ النظرة الأولى.

وراح فادي يفكر بها، ولكنه رأى اهتمام خاله بها، مما جعل الظنون تسكن أفكاره.

وراح يحدّث نفسه قائلاً: ترى هل هي معجبة بي أم بخالي؟ فخالي معه نقود كثيرة يمطرها بها أما أنا فليس معي شيء سوى قلبي الذي راح يرتجف أمام نظراتها.

أما خاله هذا الطفل الكبير فقد راح يفكر بها هو الآخر ويقول:

هل أستطيع أن انتزع حب هذه المطربة؟ يجب أن انتزع حبها، سأظل ألاحقها وأنفق عليها المزيد من النقود حتى تحبني.

غير أن تفكير سمر كان محصوراً بذاك الشاب الذي أخذ لبها، وشتت أفكارها، وجعلها ورقة في مهب الريح.

وهكذا مضت تلك الليلة والثلاثة على هذه الحال.

وجاءت الليلة الثالثة وذهب فادي مع خاله إلى ملهى النجوم ولكن هذه الليلة حضرا باكراً وراحا ينتظرا وصلة سمورة تلك النوّرية الفاتنة التي أخذت بلب كل وافد إلى ذلك الملهى ولم يطل بهما الانتظار حتى اعتلت المنصة، وافتتحت «نمرتها» بالتحية والترحيب بالساهرين واتجهت بالتحية الخاصة إلى العجوز ورفيقه الشاب الأشقر، وبدأت وصلتها فأخرج العجوز من جيبه رزمة نقود وأعطاها لفادي ليرشها على «سمورة» فنهض فادي وتقدم من سمورة وقذف النقود فوق رأسها وقال لها: تحية من أبي سامر وفادي إلى المطربة

سمورة فتوقفت عن الغناء وأطلقت تحية متكررة إلى أبي سلمر وفادي ابن أخته وتحية خاصة من عيون سمورة إلى عيون فادي فدوى الملهى بالتصفيق.

تابعت سمورة أغنيتها، وراح المعجبون والمخمورون يقفزون من خلف طاولاتهم وهم يتصايحون ويطلقون الآهات، ويلهبون أكفهم بالتصفيق، وتعالت الأصوات، وعبق المكان بدخان السجائر و«النارجيلة» وأفرغت زجاجات الخمر فكان المكان صاخباً، والساهرون سكارى عدا فادي الذي كان يستمع إليها بصمت مسلطاً نظراته الثاقبة إليها وكانت هي تغني له وحده، فكل كلمة كانت موجهة إليه، إحساسها يخاطب إحساسه، وعيونها تناجي عيونه وقلبها يرسل نبضاته عبر أسلاك كهربائية، وانتهت السهرة، وعاد كل إلى مقره. وفي الصباح اضطر خاله للسفر إلى بلده مصطحباً معه فادي.

سافر فادي تاركاً قلبه في ملهى النجوم يسبح مع طيف سمورة، تلك الفاتنة التي سطت على قلبه برقتها ولطفها وأنوثتها الطاغية.

كانت لهجتها البدوية تؤثر في القلب.

غاب فادي مدة أسبوع عاشت سمورة خلاله بقلقٍ واضطراب على غياب ذلك الوافد الذي لم تعرف عنه شيئاً بعد. حيث ظهر فجأة واختفى فجأة دون أن يقول لها شيئاً.

كانت تنتظر كل يوم، وتبحث عنه بين الساهرين بنظراتها فلم تر له أثراً فازداد خوفها من أن لا يعود مرة أخرى وكان اليأس يقتلها والوساوس تنهش أفكارها.

أما هو فقد كان يتلهف شوقاً إليها ولسماع غنائها فقد نسي كل من حوله وعاش بها ولها وعلى ذكرى تلك السهرات حتى طفلته الوحيدة نسيها ولم يستطع حملها أو النظر إليها فقد تغير كل شيء فيه طباعه، معاملته لزوجته ولأهله، بات لا يطيق أحداً ممن حوله، حتى الطعام أقلع عنه إلا ما ندر.

كان يستمع إلى أم كلثوم شارد الفكر، سابحاً في الفضاء، وزوجته تحتار بأمره لا تدري ما به تحاول التقرب منه فيبتعد عنها.

وبعد مضي أسبوع طلب منه خاله السفر إلى دمشق كي ينهي بعض الأعمال، ففرح فادي فرحاً عظيماً وطار إلى دمشق على جناح السرعة، فوصل بعد الظهر، وفي المساء كان يجلس على نفس الطاولة منتظراً ظهور سمورة.

وأخيراً ظهرت سمورة على المنصة وقد ارتعش كل عضو فيها عندما وقع نظرها على فادي الذي انتظرته طويلاً.

التقت العيون، وخفق القلبان، وراحت تغني له وحده، وقد نسيت كل من حولها، فكل نبضة من نبضات جسمها كانت تشدو له وقد رأته وحيداً من غير رفيقه العجوز.

صفق لها طويلاً، وفي نهاية وصلتها تركت المنصة وسلوت إلى طاولته، فوقف فادي مرتبكاً لا يدري ماذا يفعل وماذا يقول، ألقت عليه التحية وأحضرت كرسياً وجلست أمامه.

رد التحية وراح يرحب بها بطريقة مرتبكة، وبلسان متلعثم بينما راحت تسامره وتلاطفه حتى تخلصه من ارتباكه وبعد ساعة من جلوسها ساد الانسجام التام وراح يصف لها إعجابه بصوتها وفنها وقبل أن تتركه طلبت منه أن يزورها في اليوم التالي في بيتها فوعدها بذلك ووفى بوعده حيث استقبلته بترحاب شديد وجلسا متقابلين وغرقا في صمت عميق وراح كل منهما يفكر كيف يبدأ الحديث، وكيف يعبر عن مشاعره نحو الآخر.

وبعد ذلك الصمت المطبق نظرت إليه نظرة من يريد أن يعرف الكثير، قالت له:

فادي أنا حتى الآن لم أعرف عنك شيئاً، لا أعرف سوى اسمك فهل لي أن أعرف شيئاً عن حياتك؟ فأجابها بشيء من الخجل: طبعاً بل يجب أن تعلمي كل شيء عني.

فهمست برقة: كلي آذان صاغية.

فاعتدل في جلسته وكأنه يجلس أمام أستاذ يقدم امتحاناً، وراح يروي لها قصة حياته قائلاً: أنا من حلب أنتمي لأسرة محافظة متمسكة بعاداتها وتقاليدها وضعها المادي جيد جداً إلا أنني فقير معدم خلافاً لأهلي لأنني مستقل عنهم وقد

مررت بظروف قاسية يطول شرحها متزوج من ابنة خـــالي الذي كان معي الأسبوع الماضي ولي طفلة في الثانيـــة مـــن عمرها، أما من ناحية العمل فليس لي عمل محدد ولم أكمـــل دراستي لأنني ما قلت لك فشلت في حياتي العملية والدراسية ولكني الآن أعمل مع خالي إنه تاجر عقارات فأنهي له بعـض الأوراق وأساعده بالاتصال مع زبائنه غير أن هذا العمـــل لا يكفي لسد حاجة البيت هذا كل ما يتعلق بحياتي أما ما يتعلق بسفري المفاجئ والذي لابد أن تسأليني عنه فقد أنهى خـــالي أعماله هنا فاضطرنا للعودة إلى حلب وقد تألمت كثيراً عندما سافرت دون أن ألتقي بك وأعرف حقيقة مشاعرك نحـــوي فقد كنت أظنك تحبين خالي وأن اهتمامك هذا موجه إليـــه لأنه هو الذي يرمي المال تحت قدميك لقد أمضيـــت هـــذا الأسبوع بقلق وحيرة بين الشك واليقين كنت أفكر فيك ليل نهار فصورتك لم تبرح خيالي لحظة، كان طيفـــك يلاحقـــني أينما ذهبت لقد مضى هذا الأسبوع وكأنه دهراً ومن حسن حظي أن خالي اضطر للقدوم إلى دمشق لأن عمـــلا هامـــا ينتظره هنا لكنه طلب مني أن أسافر بدلاً عنه فلـــم أصـــدق وكدت أجن من الفرح خاصة وأنه ليس معي وبدأت أعـــد الساعات بل الدقائق كنت أفكر طول الطريق كيف سألقاك، وماذا سأقول لك، بل كيف سأطلب لقاءك وأنا لا أعـــرف صدق مشاعرك بل كنت خجلاً من نفسي وأنا الشاب المعدم كيف أطرح حبي على فنانة مثلك وهي تتلقـــى كـــل يـــوم عشرات العروض من المعجبين فأين أنا من هـــؤلاء الأغنيـــاء

الذين يطرحون حبهم عليكِ ويرمون أموالهم تحت قدميك. صمت قليلاً كي يتلقى رداً منها فرمقته بنظرة حب وقالت له بصوت فيه رعشة: ألا تريد أن تعرف عن حياتي شيئاً؟ كانت كلمتها هذه الدواء الشافي لجرح استعصى شفاؤه.

ولطالما تريد أن تطلعه عن حياتها فهذا يعني بأنها تحبه وهذا كل ما يتمناه ويصبو إليه. اتكأ على يده ورمقها بنظرة تفيض حباً وحناناً وقال هامساً:

أنا لا أريد أن أعرف إلا حبك ومدى صدقه وعمقه، أقصد هل هو حب بعيد عن أجواء عملك؟ أم أنني مجرد مرتاد تريدين جلبه إلى الملهى الذي تعملين فيه؟

استقامت على مقعده ووضعت ساقاً على ساق وقد تجمعت على وجهها لمسات الحزن ورمته بعينين مليئتين عتاباً وقالت:

فادي عندما اهتم بزبون كي أجلبه إلى الملهى يكون على نقيضك أي يكون غنياً أستطيع من خلاله ملء صندوق الملهى بالمال وأنت قلت قبل قليل بأنك لا تملك شيئاً كي اهتم بك من أجل الملهى وهذا يعني بأنني أحبك جداً بعيداً عن العمل وعن الملهى. حباً لم أشعر به من قبل، لقد أحببتك وأنا أعلم بأن خالك هو صاحب الآلاف التي يرميها تحت قدمي. أحببتك منذ أن شاهدتك لأول مرة وقبل أن أعرف عنك شيئاً، ولولا هذا لما طلبت منك أن تحضر إلى بيتي ثم لاذت بالصمت.

- رقصت الدنيا في عيني فادي ثم رمقها بنظرة ملؤها الفرح والسعادة والاعتذار ثم قال لها:

سمورة إن ما سمعته الآن أجمل ما سمعت في حياتي وأكبر من أي شيء في هذه الحياة.

إن حبك نغم ينساب في مسامعي، ووتر يعزف عليه قلبي أحلى الألحان، ونسيم يتغلغل في حنايا روحي، وعبق يعطر شذاه أحاسيسي ومشاعري وجوارحي، ولمسة يرتعش لها كياني.

حبك طير يرفرف في دنيا أحلامي، وقمر يسطع في ظلمة أيامي، وشمس تضيء ظلمات حياتي فأجابته والحب يغمر نبرات صوتها، كم أنا سعيدة بحبك يا فادي. هذا هو الحب الذي انتظرته طويلا وأنا أبحث عنه وها هو جاء أخيرا وغمر روحي بالهناء وملأ قلبي سعادة وسرورا.

ثم بدأا يتبادلا كلمات الحب والغرام ساعات طويلة. نهض فادي بعدها مغادرا على أمل اللقاء مساء في الملهى وراح كل واحد منهما ينتظر المساء بفارغ الصبر وعندما دقت الساعة الحادية عشرة ليلا دخل فادي الملهى بلهفة وشوق وكانت سمورة قد اعتلت المنصة تشدو بصوتها الدافئ وعندما رأت فادي مقبلا عليها أوقفت الموسيقى وراحت ترحب به ترحيبا حارا فأخذ فادي مكانه على نفس الطاولة وغنت سمورة بكل عواطفها له وحده وكان هو يستمع إليها بكل جوارحه وعندما انتهت وصلتها خرجا معا حيث

أوصلها إلى بيتها وبدأا يتقابلان كل يوم في بيتها وفي الملهى وذلك لمدة أسبوع. نسي عمل خاله وقرر عدم العودة إلى حلب مما سبب قلقاً لأهله ولزوجته ولخاله لقد نقموا عليه جميعهم وأعطى كل فرد منهم تفسيراً لغيابه فأرسلوا في طلبه فعاد من لحق به لإحضاره حاملاً معه أخباره الغرامية وصلته بالمطربة النورية.

جنَّ جنون أهله وذويه وخاصة خاله الذي كان مغرماً بها وقد أنفق عليها الآلاف وهو يأمل أن يتزوجها، واجتمعت العائلة وطلبوا من خاله أن يسافر إليه ويعود به إلى حلب ووضعوا اللوم عليه لأنه هو الذي أخذه إلى تلك الأماكن وعوده على تلك الأجواء فراحوا يقذفونه بوابل من الشتائم فما كان منه إلاّ أن سافر إلى دمشق لكنه وصلها متأخراً لأن فادي كان قد اتفق مع سمورة على الزواج وخططا للهرب لأن أهلها لم يوافقوا على زواجها منه وكانت خطتها أن يهربا إلى لبنان ويعيشا هناك وكانت سمورة قد أعلمته بأن لديها ذهباً كثيرا يستطيعان العيش بثمنه ريثما يجدا عملاً، وقبل وصول خاله كانت سمورة قد هربت من بيت أهلها حاملة حليّها وعدة آلاف من الليرات حيث وضعها فادي في فندق وراح هو يتردد إلى بيت أخته كي لا يسرِ الشك في نفس أخته وزوجها.

بعد غياب بيوم واحد ذهب إلى بيت أهلها وسأل عنها فقالوا له بأنها مريضة لذلك لم تذهب لتغن في الملهى، وعندما علم بأن خاله يبحث عنه تغيب عن بيت أخته وبعد أن علم

بأن خاله سافر جلس معها وسألها قائلاً: سمورة أريد أن أسألك السؤال الأخير هل ما زلت على موقفك فأنا لا أريد أن أكون سبباً في عذابك، ولا أرغب بأن يأتي يوم تندمين على اختيارك خاصة من الجانب المادي أنت تعلمين بأني فقير معدم.

أجابته والحب يرقص في عينيها: فادي لن أندم يوماً على حبي لك طالما أنت تحبني ولن أتراجع عن قراري هذا فأنا لا أريد منك مالاً لأن ما بحوزتي يكفينا معاً إلى أن نجد عملاً فمالي هو مالك.

أجابه والفرحة تقفز من عينيه: إذاً سوف أحضر الشيخ الآن.

قالت له والبسمة تضيء فوق شفتيها: أسرع.

فانطلق فادي يسابق أحلامه فأحضر الشيخ وبعد أن انتهيا من عقد القران بات معها تلك الليلة في الفندق وفي اليوم التالي سافرا إلى بيروت ولكن عند نقطة الحدود لم يُسمح لهما بالدخول لأنهما لا يحملان هوياتهما ففادي كان متسرحا من الجيش حديثاً و لم يحصل على هويته بعد وهي نورية لا تحمل هوية ويجب أن يحصلا على تعريف من قسم الشرطة كما قيل لهما وهو يجب أن يذهب إلى حلب كي يحصل على إخراج قيد وهذا يستغرق وقتاً طويلا لذلك فكرا بأن يستأجرا غرفة ريثما يعود من حلب ففعلا وكانت الغرفة في حي شعبي.

وخلال هذه الأيام كان خاله يبحث عنه ليل نهار فلم يعثر له على أثر فعاد إلى حلب خائباً وقص على أهله ما سمع

من أقاويل فثار أهله وغضب الجميع وهدد والده بطـــرده إذا عاد وسوف يطرد زوجته ونفذ ما قاله فقد طرد زوجتـــه إلى أهلها وكان ذلك قاسياً على والدته التي تحب زوجتــه حبــا عظيماً فبكت كثيراً لخروج زوجته وابنته من البيت. وعـــاد فادي إلى حلب كي يحصل على إخراج قيد ليتمكـــن مـــن السفر إلى لبنان فعلم بأن والده قد طرد زوجته وابنتـــه وأن زوجته مصممة على الطلاق، وكانت أمه في صف زوجتـــه فتألم كثيراً وبدأ الصراع يأكل رأسه فهو محتار بين الزوجـــة وبين الحبيبة ماذا عليه أن يفعل عاش في صراع رهيـــب وراح يتخبط في دوامة من الهم والتفكير فإن ترك ابنته صعـــب وإن ترك حبيبته أصعب ولكن ابنته أهم من نفسه ومن حبه ومـــن الدنيا هكذا كان يقول عندما يقارن ابنته بحبه وأخيراً حســـم الأمر وقرر أن يختار ابنته فذهب إلى أمها معتذراً عما بدر منه طالباً منها أن تعيد زوجته لأنها هي الوحيدة الـــتي تســـتطيع إصلاح ما فسد ولأن كل العائلة تقدّرها وتأخذ برأيـــها ولا ترد لها طلباً. أما والدته فقد قابلته بجفاء وبرود وراحت تقرعه بعنف وتوجه إليه كلاماً قاسياً معلنة له بأنها سوف تســـاعد زوجته على الطلاق فتوسل إليها بأن تغفر له واعداً إياهـــا أن لا يعود إلى مثل هذه الأفعال فقالت له: إن زوجته وابنتـــك عندي وأنا مسؤولة عنهما سوف أعيدهما هـــذه المـــرة وإذا ضايقت زوجتك يوماً فلن يكون لك عندي لا زوجة ولا ابنة هل فهمت؟ قال: أجل فهمت.

ثم أعادت له زوجتك وعاد إلى زوجته بجسده أما روحه وقلبه فقد رحلا إلى هناك إلى سمورة التي كانت تنتظره وقد طال انتظارها أسابيع دون أن يصلها منه خبر.

وتحول القلق في نفسها إلى ذعر فإن أخل بها فقد قضي عليها لقد هربت من بيت أهلها وتركت العمل في الملهى بناءً على طلبه حتى أنها أقسمت له بعدم الظهور على المسرح إكراماً لعينيه حتى ولو تركها فلن تعود إلى الغناء هكذا قالت له وهي لن تتراجع أبدا حتى لو خلا بها، هكذا عودت نفسها.

أما فادي فقد كان يصل الليل بالنهار شاردا تائها بأفكاره لا يعرف جفنه للنوم طعما وكانت زوجته تشكو منه ومن حالته التي لم تعد تطاق وكانت الأم تصبرها وتهدئها ومضى شهر على انتظار سمورة لفادي ولم يحضر وفي يوم قرر فادي أن يحكي قصته لأمه علها تستطيع مساعدته لأنه ذلك اليوم كان ينكر هذا الموضوع ويعتبره اتهاما فطلب من أمه أن تعطيه من وقتها ساعة وتستمع إليه بتفهم، ولبت أمه طلبه فهي مثقفة وتستطيع أن تتفهم الأمور وأن تستوعبها. فقص عليها كل ما حدث معه وأضاف بأنه يتعذب ولا يستطيع نسيانها وأنه وعدها بأن يعود وقد مضى شهر ولم يف بوعده فراح يترجاها بأن تجد له حلا بل وطلب منها أن تسمح بالسفر بل وأن تسافر معه كي تجتمع بسمورة.

صمتت الأم، وانغمست في تفكير عميق، ماذا تفعل؟ وكيف تتصرف؟ فقد وضعها فادي في مأزق كبير فلا

تستطيع تحطيم حياة ابنة أخيها التي تحبها كثيراً، ولا تستطيع تقديم المساعدة لتلك المطربة التي ضحت بكل شيء من أجله. وطال صمتها وكانت سعادة فادي معلقة على كلمة منها وراح ينتظر قرارها. وأخيراً التفتت إليه بلهجة لوم وعتاب، ماذا فعلت يا فادي؟ لقد قضيت على تلك الفتاة فماذا عساني أن أفعل؟ فلو لم تكن متزوجاً لحطمت تقاليدنا وساعدتك على الزواج منها ولكن كيف أساعدك على تحطيم ابنة أخي؟ فالموضوع ليس موضوع خلاف اجتماعي يمنع زواجك بل هناك زوجة وابنة يجب أن تعيش بين أبوين متحابين ثم صمتت لحظة قالت بعدها: ولكن هذه الفتاة أيضاً تستحق الشفقة والرحمة فكيف أستطيع مساعدتها؟ أضافت قائلة: اسمع سوف أسافر معك وأراها وهناك سوف أجد لها حلاً، ويجب أن أساعدها وأقدم لها ما يسعدها.

وفي اليوم الثاني سافرا إلى دمشق وهناك كانت المفاجأة الكبيرة والمؤلمة فقد ذهبا إلى المترل الذي كانت تقيم فيه فلم يجداها وقالت لهما صاحبة المترل بأن سمورة تركت غرفتها بعد أن طال انتظارها لفادي وبعد عذاب أليم. لقد بكت كثيراً، وانتظرت طويلاً وعندما يئست من عودته عادت إلى أهلها وتساقطت دموع والدة فادي من شدة تأثرها فالتفتت إلى فادي وقذفته بعدة شتائم ثم قالت له: هيا بنا نلحق بها إلى بيت أهلها كي نطمئن عليها ونعرف ماذا أصابها فربما يكونوا قد قتلوها وذهبا إلى حي النور وطرقا باب أهلها وهناك كانت المفاجأة الأكبر حيث كانت سمورة تعيش بزهد

وانطواء. لقد ذبل عودها وتاهت روحها لكثرة ما نالت من أخيها من الضرب والقسوة محاولاً إعادها إلى الملهى وهي ترفض بشدة ولم تصرح باسم فادي عندما حققوا معها عن سبب غياها هذه المدة فقالت لهم بأنها هربت لوحدها لأنها لا تريد الغناء لذا استقبلوا فادي وأمه بترحاب شديد وطلبوا من فادي أن يقنعها بالعودة إلى العمل فطلبت أم فادي الإنفراد بها لأنها صحفية وتريد أن تجري مع سمورة حديثاً صحفياً وصدق الأهل فتركوها وحدها وخرجوا من الغرفة وبدأت أم فادي الحديث مع سمورة بعد أن عرّفتها موضحة لها سبب لقائها وأخبرتها بأنهما ذهبا إلى غرفتها فلم يجداها. فرحبت سمورة بأم فادي وعبرت عن سعادتها بلقائها بكلمات رقيقة وعميقة الأثر قالت بأنها كانت تحلم بهذا اللقاء وتتمنى التعرف عليها ولكن بغير هذه الظروف أي كانت تتمنى أن تلقاها أماً لزوجها، تحلم بأن تقبلها وكم حدثت فادي بهذا الأمر وكم سألته: يا ترى هل ستوافق أمك على زواجنا؟ أمنيتي أن تكون هذه السيدة حماتي هكذا قالت لأم فادي. لقد حدثني عن عظمتك كأم وسيدة مجتمع متحضرة فهو فخور بك جداً.

شكرتها أم فادي على هذه الكلمات وراحت تطرح عليها بعض الأسئلة وكانت سمورة تجيب على أسئلتها بصدق وعفوية وكانت دموع أم فادي تنهمر بغزارة أثناء حديثها مع سمورة وفي نهاية الحديث قالت لها أم فادي: سمورة أنا آسفة جداً لما حدث، وأشعر بألم شديد من أجلك، ولكني لا أعرف ماذا أفعل، ولا أعرف كيف أستطيع مساعدتك، فأنا

جئت إليك كي أقدم لك ما ينصفك ويسعدك دون أن أمسٍّ زوجته بأذى، فأنت تعلمين بأنها ابنة أخي وأنا أحبها كثيراً فقولي لي ماذا تريدين؟ وماذا أستطيع أن أقدم لك؟.

رمقتها سمورة بنظرة شكر وامتنان وقالت لها بصوت يائس:

إن مجيئك هذا تعبيراً كافياً لم تريدين فعله، وأنا لا أطالبك بشيء أكبر من طاقتك، وأية أم لا تستطيع فعل عكس ما فعلت، فأنتم لا يليق بكم الزواج من نوريّة أو مطربة.

فقالت لها الأم: لا تقولي هذا يا ابنتي فأنا عندما اعترضت على زواجه منك ليس لأنك نورية أو مطربة بل من أجل زوجته وطفلته.

أجابتها سمورة بصوت حزين وأنا أيضاً لا أريد أن أبني سعادتي على حطام زوجته وطفلته لذلك أقول بأنك لا تستطيعي أن تقدمي لي شيئاً، فلا تحزني عليّ يا سيدتي فهذا هو حكم القدر القدر الذي يدير حياتنا وأنا راضية بقدري فالأمر ليس بيدك ولا بيدي، الأمر كله بأمر الله سبحانه وتعالى، ثم التفتت إلى فادي ونظرت إليه بعينين تفيضان بالدموع وقالت له: إنني عاتبة عليك يا فادي لأن هروبك بهذا الشكل آلمني كثيرا، والانتظار حطمني، كنت أتمنى أن تأتي إليّ وتخبرني بما حدث ثم تطلب الانسحاب كنت عذرتك ثم افترقنا بدون جراح أما الآن فقد تركت في قلبي جرحاً لن يندمل بمرور السنين، فبعد أن كنت عذراء أصبحت عكس ذلك ولا أحد يعلم بأنني تزوجت ولكن لا عليك مني فأنا

خلقت للعذاب وليس هذا بجديد عليّ. ثم ارتحلت بعينيها بنظرة إلى البعيد وراحت تحاكي نفسها قائلة:

كم حلمت بهذا اليوم الذي أتزوج فيه وأكون سيدة بيت وأماً لأطفال ولكن هذه الأمنية بعيدة المنال استكثرها عليّ القدر فحرمني منها. فأيقظها فادي من شرودها حين قال لها: سمورة إني آسف على ما سببته لك من عذاب، لقد كنت جباناً عندما أخلفت بوعدي ولكن اعذريني فأنا كنت في وضع لا أستطيع فيه اتخاذ قرار. فقالت له:

لا عليك يا فادي، أتمنى لك التوفيق والسعادة أما أنا فمقري الجحيم الذي خلقت لأكون وقوداً له.

أجابها فادي بصوت متحشرج: إن كلامك هذا يقتلني فلا تكوني قاسية عليّ فأنا لست بأقل منك ألماً وحزناً. لقد أحببتك حباً عظيماً، أحببتك بكل جوارحي، بكل مشاعري وأحاسيسي ولكن ماذا أفعل بقدري الذي دفع بكَ إلى طريقي وأنا متزوج؟

كانت الأم تستمع إليهما وهي تذوب ألماً خاصة وهي قد أتت إليها كي تخفف عنها أو تقدم لها مساعدة فوجدت نفسها عاجزة عن تقديم أي شيء فرأت أنه من الأفضل أن تنهي الأمر فهبت واقفة ونهضت سمورة لوداعها فاقتربت منها أم فادي ووضعت يدها على كتفها واليد الأخرى على خدها وراحت تتحسسه بحنان الأم ثم قالت لها:

كم كنت أتمنى أن أقدم لك شيئاً يجلب لك السعادة والراحة لنفسك ولكني أقف عاجزة عن تحقيق ذلك.

أجابتها سمورة بصوت حزين: لا عليك يا سيدتي فلا تحمّلي نفسكِ أكثر من طاقتها، فهذا قدري وأن راضية به وتابعت قائلة وهي تضم هذه السيدة: كم حلمت بلقائك هذا، وكم تمنيت الارتباط بكم كي أقول لك يا أماه.

احتضنتها أم فادي بنظراتها الحنونة وقالت لها:

وأنا الآن أرغب بأن أسمع هذه الكلمة منك ولن أذهب من هنا قبل سماعها.

ابتلعت سمورة ريقها وهمست وكأنها تلفظ اسماً مقدساً: لا عليك يا أماه يكفيني مجيئك إليّ فتساقطت دموع أم فادي فجذبتها إلى صدرها وعانقتها مودعة ثم خرجت وتبعها فادي وفي قلبها حسرة على تلك الفتاة وفي حلقها مرارة لا توصف على قدرها المؤلم.

1995/3/3

الساعة السابعة صباحاً

جرس الهاتف

الحياة ما هي إلا دمعة، وابتسامة، دمعة يعتصرها القلب قبل أن تذرفها المحاجر،.... وابتسامة تبرق في العيون قبل أن تبثها الشفاه.

وعندما يعتصر القلب دموعه، يكون في حالة من التمزق والاحتضار، وحين تندلع نيران القلب تتدفق الأنهار من العيون لإطفائها وفي لحظة ذوبان القلب تبدأ رحلة البحث عن أناء يسكب فيه خلاصة المعاناة..

في الوقت الذي تضحك فيه العيون تتراقص الأزاهير ويطلق الثغر العنان لابتسامته عندها تتفجر الجداول في الأصقاع وتغدو الجبال العارية مروجاً غناء...

هكذا بدأت منى تفلسف الأشياء الحياتية في مخيلتها وهي جالسة في شرفتها ترشف فنجان قهوتها الصباحي تمعن النظر إلى حركة الناس في الشارع وتفتش بلهفة عن الحبيب الضائع وسط المارة فلا تجد له أثرا..؟

حقاً أنه يختلف كثيراً عن البشر ووجه اختلافه أنه حبيب العمر ورفيق الصبا وهو كتلة من الذكريات بفضاءاتها والمفعمة بالأنس والروعة والبهاء.

آهة محرقة تنطلق من الأعماق تحرق صدرها وتسأل:

لماذا نأى عني؟ وكيف تركته يرحل؟ وإلى متى هذا البعد؟ و؟

أسئلة كثيرة تتوارد في مخيلتي ولكن دون أن تجد لها جواباً مقنعاً؟..

وبينما هي على هذه الحال من التفكير بالحبيب الغائب الحاضر وإذا بجرس الهاتف يرن، نهضت بسرعة تركض باندفاع إلى غرفة نومها كعادتها التي لازمتها منذ فراقهما.

حيث كانت تمضي معظم وقتها قرب الهاتف عله يزيد من حرارته باتصال يكسر حاجز الانتظار الطويل. أمسكت بالسماعة ورفعتها بسرعة وهمست بصوت خافت، فرد عليها الطرف الآخر بكلام كان لوقعه في أذنيها سمفونية لا أجمل ولا أحلى، وبغبطة صاحت من؟ سامي آه يا حبيبي كم انتظرت اتصالك هذا وأجهشت بالبكاء..

قال لها: منى حبيبتي أني بشوق عظيم إليك آه يا منى قلبي وتوأم روحي، كم عذبني بعدك عني وكم بكيت وأنا سجين غرفتي تخيلتك كثيراً بجانبي نتقاسم الحياة منى آه يا حبيبة لو تعلمين كيف انصهرت بنار الفراق وأصبحت رماداً تتقاذفني الرياح.. وكم توجتكِ أحلامي عروس أيامي وملاك قلبي ليتك تعرفين ماذا يجري لي وقتئذ ولا أحصد إلا السراب..

صوته كان يرتعش مرة ويغص بالبكاء مـــرة أخـــرى، تتحشرج الكلمات في سماعة الهاتف.. بينما كانت منى تصغي السمع إليه ودموعها اللاهبة تهطل غزيرة وكأنها في فجيعة بـل قطعة من جسدها تتحسس النار التي تلفح قلبها والمرارة الـــتي تفتت أحشاءها، وعبر دموعها أجابت منى حبيبها قائلة: بمـاذا أبوح لك يا حبيبي ورفيق عمري؟

أن بعدك عني حطم كياني وأجهض كل أحلامي وحول ليلي نهاراً ونهاري غياهب دامسة وكأني أموت موتاً بطيئاً أنني أراك في كل الأشياء من حولي، بكأس مائي ـــ.. وشـــــهيق هوائي.. ماذا أفعل يا ضياء عيني بقلبي النازف؟!..

كان بكاؤها صدى يختزل أوجاعها وصوتها المتقطع ينم عن معاناتها المزمنة مع الحب المفرط لقد أحس سامي بحالتـــها المخذولة التي كادت أن تفقدها الوعي عاتبته علـــى ضعـــف موقفه واستسلامه اللامعقول ولامته على بعده وانقطاعه عنها وتركها تعيش في بحور حبها وعشقها هائمة على وجهها دون أن يعترف لها بما تقول، بل كان يدافع عن ذاته مبرراً تصرفاته بتحكم الظروف التي حالت بين الاثنين وبعد فروغ ســـامي ومنى من العتاب..

قالت له: وبعد ماذا نفعل الآن؟

وما هو الحل؟

أما من نهاية لهذا العذاب المتبادل؟!

تنهد بألم وقال لا أدري؟

لم أجد حلا؟!

أجابته بصوت مذبوح كيف وصلنا إلى هذا الواقع المعلق؟

وهل نرضى بقدرنا ونسكت على الضيم؟

هل يعقل بأن نحكم على قلبينا بالموت المؤبد من أجل الغير قلها يا ظالم، انفجر باكيا وقال لها: أتقولين ظالم؟!

هل حقا أنا ظالم كما سميتني؟

قالت: أجل أنك ظالم لنفسك أولا ولي ثانيا بل أنت ضعيف الشخصية وجبان أمام المواقف الحاسمة، بدليل أنك لا تستطيع أخذ أي قرار مهما كان صغيرا وتافها ومع ذلك تجدني أحبك حبا بوسع الكون، أجل أحبك وأموت من أجلك، أن حبك أخذ بتلابيب القلب والروح معا وجعلني أسيرة محراب هواك..

انتزع آهة من قلبه المشروخ وقال.. أعرف بأني كما وصفتني ضعيف ولا أستطيع فعل شيء لأني مقيد بالزواج الذي ورطني به أهلي، فهم لم يقبلوا بك زوجة لي، أما الآن فبيننا امرأة لا ذنب لها بما حدث..

أجابته بعصبية زائدة هي لا ذنب لها وأنا المذنبة، بربك هذا هو المنطق، وتدافع عنها أيضا؟

قال لها: أنا لا أدافع عنها بل لا أستطيع فعل شيء في الوقت الراهن؟!

صمتت لحظات وذرفت الدموع، حبست الأنفاس وانفجرت ببكاء صاخب ومؤلم وهو يستمع لمجريات حالها من خلال الهاتف.

قالت له متسائلة: هل يوجد اثنان في الدنيا يلفهما الحب كما نحن ومع ذلك لا نحرك ساكنا؟!.

قال: أجل وصمت؟!

أطلقت مني آهة أخرى كادت تفجر سماعة الهاتف وقالت إذا لابد من الفراق هذا هو وقت الوداع.. فلن أطلب منك بعد الآن شيئا!؟..

وهذا خير لي لأنك رجل لا تستحق حبي فقد أخطأت الاختيار حين وهبتك قلبي وعواطفي فالرجل الذي يستهين بحبه ولا يفعل شيئا من أجل هذا الحب لا يستحق الحب وأنت رجل مهزوز وضعيف لم أعد أريدك ولن أعود إليك حتى لو كنت آخر رجل في العالم وسوف أبدأ حياتي من جديد مع رجل يستحق حبي وعواطفي ولن انتهي بعدك كما يخيل إليك وأغلقت سماعة الهاتف قبل أن تسمع الجواب وراحت تنظر إلى البعيد من خلال دموعها بنظرة فيها تصميم ووعيد وهي تقول: أجل يا سامي لن تنتهي الحياة بعدك لأني لست بالضعف والجبن الذي أنت فيه، أنا مني التي تستمد منها الجبال شموخها وصمودها وسوف أثبت لك بأنني لست المرأة التي تباع وتشرى وأنك ستندم يوما على موقفك هذا وستأتي إلي ذليلا وعندها لن أرحمك، ولن أشفق عليك لأنك

لا تستحق حتى الشفقة ومضت الشهور وتليها السنين وتبدل كل شيء في حياة منى وعكسها في حياة سامي وبينما كانت جالسة على شرفتها ذات الجلسة ترشف قهوتها ولكن بنظرة مختلفة للحياة.

كانت نفسها مرتاحة ومشاعرها مقبلة على الحياة الجميلة التي بدأت تراها وإذا بجرس الهاتف يرن لم تقفز كعادتها وتلتقط سماعة الهاتف بل سارت بخطى راقصة ودخلت غرفة نومها ورفعت السماعة وهمست بصوت رقيق عذب آلو؟

فجاءها صوت مرتجف آلو منى كيف حالك صمتت لحظة وقد عرفت صاحب هذا الصوت الذي أبكاها كثيرا عندما خدعت به وملكته عواطفها ومفتاح قلبها الذي لم يعرف الخداع يوما..

قال آلو منى لماذا لا تجيبين؟

همست بصوتها الرقيق كنت أستمع إلى نبرات صوتك لأتأكد من صاحب هذا الصوت..

قال بلهجة منكسرة وهل نسيتِ صوتي يا منى؟

أجابته بلهجة قاسية لقد نسيت صوتك ومسحت من ذاكرتي وحياتي اسمك وكل سنين معرفتي بك.. حتى رسمك.

قال معاتبا: وهل هانت عليك سنين حبنا؟

صمتت قليلا قالت بعدها بطريقة ساخرة والله أن ذاكرتك قوية جدا كيف استطعت أن تذكر بأنه كان بيننا حب؟

وتنهدت متابعة يا إلهي كم أنت رجل وفي.. زفر بضيق وقال لها: مني هل تسخرين مني؟.. ضحكت ضحكة سخرية وقالت له باستهزاء: وهل أنت غير ذلك كي أسخر منك.

قال لها بضيق: مني اسمعيني أرجوك أن تسمعي ما أقول؟

قالت له: وماذا عندك؟ صاح بنفاذ صبر مني قلت لك اسمعيني ولا تسخري مني.. مني أريد منك طلبا أرجو أن تلبيه..

قالت: عندي أنا؟ ما هو؟ ثم هل أنت بحاجة إلي؟

قال: أجل أنني بحاجة إليك أريد أن أراك..

قالت له بلهجة حادة: سامي لم يبق بيننا ما يستدعي لأن ألقاك فكل ما كان بيننا قد انتهى منذ زمن وسنين طويلة.. فكيف بعد مرور كل هذه السنين تطلب مني أن ألقاك؟

قال لها برجاء: مني أريد أن أتحدث إليك هناك أمور أريد أن أحكيها لك..

قالت له بصوت حازم: سامي أنا لم يعد يهمني من أمرك شيئا فلا داعي لأن تطلعني على شيء..

قال: ولكني مصر أن تعرفي بعض الأمور.. صمتت قليلا قالت بعدها قل ما عندك الآن على الهاتف ألا تذكر كيف انتهى كل ما بيننا على الهاتف قبل الآن؟

صمت لحظة قال بعدها بصوت فيه ندم وحزن: مني لقد مضت هذه السنين وأنا أعيش بذل مع هذه المرأة التي

تزوجتها والتي لم أستطيع أن أحبها قط فأنـــا لم أســتطيع أن أنساك لحظة، قد أصبح نهاري قاتم الظلام وليلي طويل وأيامي مرة كالعلقم أني بفقدانك فقدت كل شيء جميل في حيـــاتي حاولت أن أرضى بقسمتي ولكن لم أعد احتمل غبائها فـــهي لا تفهم من أمور الحياة شيئا سوى جانب من العلاقة الزوجية فقاطعته بحدة وقالت: سامي لا تزيد بوصفك لحالك هذه فأنا عندي علم بها ولكن أنت كل هذه الأمور لم يكن لها قيمـــة عند لا الحب ولا الثقافة ولا الفهم فكل ما كان يهمك هـــو المال أليس هذا ما كنت ترغب به؟..

أليست هي من فضلتها علي من أجل بضعــــة قـــروش معها ألم تبع حبي بثمن بخس والآن جئت تشتكي من أمرهـــا وتتحدث عن الحب لماذا هل نفذت نقودها؟

صاح بعصبية: منى ماذا تقولين؟

قالت: هل ما قلته غير صحيح؟ أم أني أرمـــي التـــهم عليك جزافا إنها حقيقة فكان عليك أن تحتضن القرش وتنام

لأنني وجدت القلب الذي يستحق أن يحتضنـــه قلـــبي والروح التي داوت جراح روحي.

من دائرة الشك

كان سعيد في حالة صراع نفسي حاد، وشكوكه في أعماق روحه كوحش كاسر تغتصبه من أحلامه، وتلاحقه فتحرمه لذة النوم.. وكثيرا ما كان يستيقظ مفزوعا ليرى نفسه داخل دوامة أوسع، يحضنه ظلام النفس التي تخاذلت وتلاشت أمام الشكوك التي شوهت كل شيء جميل وإنساني في عيني سعيد، كل شيء عنده فقد قيمته ومعناه أمام تخبطاته ورؤيته لما يدور حوله في مترله..

زوجته أولاده ضيوفه، كان الفكر مشتتا ضائعا لا يدري إن كان شكه حقيقي أم أنه وهم فقد كان يبحث عن أخطائها عن دليل خيانتها فلم يجد له طريق، فراح يحدث نفسه قائلا: إما أها امرأة بارعة الخداع والحيلة، وإما أنا رجل غبي لا أعرف كيف أحصل على دليل وبينما كان سعيد يعيش هذا الصراع كانت زوجته ملتزمة في بيتها وأولادها تعمل لمصلحة أسرها غير أن كل هذا لم يكن يقنعه ولا يصدقه فكان صراعه مع الشك مميت وعذابه لا يضاهيه عذاب، وكانت زوجته لا تدري من أين أتى بهذا الشك فكان يختلق سببا كي يتشاجر معها ويكيل لها التهم والمسبات

أما هي فقد كانت في البداية تقف مذهولة لما تسمع ثم تصرخ في وجهه إنك رجل مجنون لا تفقه ما تقول لكنها من كثرة ما سمعت. ما يردده آثرت التزام الصمت، بينما تجاوز الشك بعدا آخرا أخطر بكثير وهو الأولاد.. هؤلاء الأولاد هم ثمرة خيانة زوجته له، ورسخت هذه القناعة في أعماقه.. مما أدى به للوقوع في المرض الذي انعكس مباشرة على سلوكه العام.. والخاص. والذي أتعبه أكثر هو عدم حصوله على دليل خيانتها كي يرتاح من عذاب الشك وفي يوم مرير عاد سعيد إلى البيت فلم يجد زوجته فيه فقط كان ولدها الكبير والصغير.. يلعبان.

دخل سعيد إحدى الغرف وراح ينظر إلى ولديه والتخيلات تعصف في رأسه، وكان ضجيج أصواتهما تتصاعد فتصل إلى سمعه وكأنها عواء ذئب في ليلة شتاء مظلمة، لم يستطع الجلوس، وراح يتنقل في أرجاء البيت بعصبية وتشنج وكانت تقلصات وجهه وحركات يديه تعبران عن مدى صراعه مع نفسه وانفعالاته الداخلية إلى درجة الجنون وفجأة وقف في باب الغرفة وصاح في صوت عصبي ونبرة غاضبة: سامر أيها الشيطان، توقف سامر عن الحركة وابتلع صوته وأجاب بحشرجة: نعم يا أبي ماذا تريد؟! قال سعيد: اقترب مني!! فنظر سامر إلى وجه والده فرأى الغضب يعصف في قسمات وجهه، والشر يحتل صفاء عينيه، فسار في خطى مرتجفة ووقف أمامه محني الرأس فاقترب منه وأمسكه من يده وجذبه بقسوة وعنف وقال له: لماذا سرقت من جيبي النقود؟..

ارتعد سامر من الخوف ليقينه أن والده علم بفعلته، أجاب سامر: أنا لم آخذ شيئا، فأمسكه بكلتا يديه وهزه بعنف وقال: بل أنت الذي سرقت النقود، وهذه ليست أول مرة وإنما تتالت سرقاتك. وفي كل مرة تكذب وتقول لم أسرق وفي النهاية تعترف وتعلن توبتك ثم تعيدها إنك ولد شيطان فاسد الخلق فأنت لم تتجاوز الثانية عشر بعد، وتمد يدك للسرقات فكيف بك عندما تكبر؟!.

عندها ستصبح لصا محترفا! وراح يكيل له الشتائم، والمسبات وإلى أمه التي أنجبت هذا الولد الفاسد، ثم هاج غضبه فقال له: أقسم بالله لسوف أسلخ جلدك وأتخلص منك ومن أفعالك القذرة وتركه واندفع إلى المطبخ كعاصفة هوجاء، وخلال لحظات عاد ومعه حبل، فجذبه من يده وسار به إلى شجرة في ركن الدار ولصق وجهه ويديه إلى جذع الشجرة وأوثقه بإحكام وجاء بكبل وراح يجلده به والطفل يصرخ ويتوصل إليه ويعلن توبته عن السرقة وسعيد لم يسمع صوت طفله ولم يشعر بقسوة ضرباته على ظهر سامر وظل الكبل يعلو ويهبط حتى سالت الدماء. وصدى صوته يضيع في وديان الغضب وعداء الكبل يفترس روحه كذئب جائع.

وهنا فتحت الباب زوجته ودخلت لتصفع بهذا المنظر المريع فهلع قلبها ورمت رضيعها من حضنها وهجمت على سعيد كالمجنونة ودفعته بعيدا، وارتمت فوق ولدها الذي

أخذته يد الهمجية والجهل وراحت تبكي وتفك قيده بيدين مرتجفتين وجذبته إلى صدرها وإذ به قد فارق الحياة، فأطلقت صرخة مدوية وقالت له لقد قتلته أيها المجرم، وراحت تضمه إلى صدرها وتناجيه سامر يا مهجة قلبي وفلذة كبدي. أهكذا يا بني تموت؟ وكل هذا العذاب وهذا الألم. ثم قلبت سامر على وجهه وكشفت عن ظهره لترى ظلم الأيام وقسوة الأب. وما لبثت أن رمته من حضنها وهجمت على زوجها تنشب أضافرها في وجهه وعنقه، وتضربه وما كان منه أن أمسكها بكلتا يديه ورماها أرضا، وراح يدوسها بقدميه، فزحفت إلى جسم سامر لتعود إلى نحيبها وبكائها.

وقف سعيد قليلا ينظر إليها وهو في حالة ذهول، فابنه قتيل بين يديه وزوجته تكاد تجمع جيرانها من كثرة بكائها على ابنها فتشابكت الأشياء في داخله. ولكنه ما لبث أن أفاق من ذهوله وهجم عليها وأنهضها من فوق جثة ولدها وأمسكها من كتفيها وراح يهزها بعنف ويقول لها أصمتي أيتها البلهاء، إياك أن يسمع أحد بما حدث أو تعلمي أحد، يجب أن لا يعلم رجال الشرطة بأنني أنا قتلته، يجب أن تقولي أنه سقط من فوق السطح.

وأقسم بالله لو سمعت أنك تفوهت بأي كلمة لقتلتك معه، توقفت الدموع بين الأهداب وتقطعت أوتار صوتها، وراحت ترسل نظراتها إليه كقذائف نارية، وقالت له بصوتها المذبوح ماذا ستفعل بي، بعد الذين فعلته بابنك، تريد قتلي

ليتك تفعل هذا، أرحم لي، أجابها بلهجة ساخرة، لا لن أقتلك لأن الموت سوف يرحيك، وأنا لا أريد لك الراحة، ولكني سوف أقوم بعمل أمر من الموت، سوف أجعلك تطلبين الموت في كل لحظة ألف مرة ولا تجدينه.

نظرت إليه وانتصبت واقفة وهي تقول في أعماق نفسها، ماذا عساه أن يفعل وماذا يعني بكلمته هذه، إنني أعرفه رجل وضيع وفيه مسة من الجنون.

لحظات قليلة وهي تستجمع قواها لتقف أمام قاتل ابنها وزوجها في آن واحد، رمته بنظرة صاعقة وقالت له: أعرف إلى أي شيء ترمي بكلامك هذا، لقد سمعت اتهامك منذ سنوات، ولكني لم أتوقع أن يصل بك الأمر إلى قتل ولدك وتوهمك بأنه ليس ولدك، إذا وصلت أوهامك إلى هذا الحد فلما لم تطلقني حتى الآن، أجابها بعصبية وانفعال لن أطلقك قبل أن أمسك دليل خيانتك، قالت له: أما زلت مصر على هذا الاتهام.

أجابها بلهجة حازمة أجل وسوف تنصاعين لرغبتي وتقولين أن الولد قد سقط من فوق السطح، وكان له ما أراد وقد دفن ابنه سامر على هذا الأساس.

وبعد مضي شهور على هذه الحادثة المفجعة كشف أحد الجيران غموض هذه الجريمة، وقد كان في شك من أمر سقوط سامر وظل ينقب خلف هذا الأمر حتى تأكد من ذلك، فأبلغ الشرطة وقبض على سعيد وفتح التحقيق.

واعترف سعيد بجريمته: وبدأت محاكمته وهو داخل القضبان وهناك: هناك كان العذاب المر الحقيقي له.. عذاب الضمير راح يأكل روحه، وعذاب السجن يهدم جسده.

لقد جلس في سجنه يسترجع ما حدث: يسلسل الأمور التي كانت تطوق عالمه ودخل في حوار قاسي ومرير مع نفسه كان يقول إنها امرأة خائنة لا شك عندي بذلك. ولكن ما ذنب هذا الطفل البريء الذي لطخت يدي بدمائه.

أليس من المحتمل أنه ولدي؟ وحتى لو لم يكن ولدي ألم أقم على تربيته اثني عشر عاما، فما ذنبه إذا كانت أمه خائنة. فهل هو الذي دفعها إلى أن تخون؟ قطعا لا، إنه مظلوم ولد دون إرادة ومات دون إرادته.

وفي كلتا الحالتين لم يختر مصيره بيده.

آه يا بني ماذا جنت يداي في حقك، وانفجر في البكاء المرير إنه بكاء الدم والحسرة: وظل يبكي لساعات طويلة وكأنه يريد غسل آثامه بهذه الدموع، غير أنه لم يلبث أن أفاق من نوبة البكاء واتسعت حدقة عينيه وامتلأت حقد واحمرت أجفانه وكأنها جمرة من نار، وانتصب واقفا وراح يقول بصوت جهور، أيتها العاهرة الخائنة كان يجب أن تموتي أنت وليس سامر، إن هذه الميتة تليق بك، ولكني سوف أفعلها يوما عندما أخرج من سجني وسأشفي غليلي منك، ثم راح يضرب رأسه. أدرك شيئا لم يكن قد توصل إليه من قبل

وقال يا إلهي كم أنا غبي وأحمق كيف أقتل ولـــدي لأنـــي شككت بصحة أبوتي له و لم أقتلها هي، بئر العار والخيانة.

وبينما هو على هذه الحال من القـــهر والعـذاب وإذا بالسجان يفتح الباب ويصيح سعيد، التفت سعيد إلى مصـدر الصوت وأجاب نعم: قال السجان: تعال معي لك زيـــارة: وصاح سعيد بعصبية ونزق لا أريـــد أن أرى أحـــدا، قـــال السجان: ولكنها زيارة خاصة أجابه بغضب: لا أريد خاصـة ولا عامة. صمت الشرطي قليلا قال بعدها ألا تريد أن تـــرى ابنتك استدار بشكل لولبي وسريع ومسحة من المشاعر الأبوية اعتلت وجهه وأطفأت نار ثورته وحولت وحشيته إلى وداعـة وإنسانية، قال له: ماذا قلت؟ ابتسم الشرطي بلطف وقـــال كما سمعت أن طفلتك تريد أن تراك فدفع الشرطي جانبـــا وانطلق مسرعا فتبعه الشرطي بخطا واسعة، وعندما أصبـح في غرفة الزيارات، رأته الطفلة واندفعت نحوه وهي تصيـــح أبي أبي فتح ذراعيه وأخذها بين أحضانه وراح يضمها ويقبلـــها وهو يبكي وكانت زوجته تقف جانبا ومن بين خصـــلات شعرها وقع نظره على زوجته فرماها بنظرة حـــادة تحمـــل عذاب نفسه وآلام روحه فطأطأت رأسها إلى الأرض، فوضع ابنته جانبا ودنا منها وهمس في أذنها قائلا: يجب أن تقومـــي محاميا قديرا، يجب أن أخرج براءة هـــل فـــهمت يجـــب أن

تشهدي لصالحي وإلا أنت تعلمين ماذا أفعل لـــو تصرفـــت عكس ذلك، صمتت فاطمة و لم تجب ولكن مرارة الموقـــف كادت تأكل أحشائها وعندما انتهت الزيارة التفتـــت إليـــه ترميه بنظراتها الحاقدة وخرجت مع طفلتها إلى دارها مشـــتتة الفكر تشعر بأن مطرقة حادة تضرب رأسها فقـــد تمزقـــت عواطفها بين ولدها القتيل وزوجها القاتل، ماذا تفعل وكيـف تتصرف هل تساعد المحامي على تضليل العدالة ليخفف الحكم على قاتل ولدها وهي ترى دماء سامر ملطخة على يديـــه، وصوته يقرع في رأسها وأوجاعه تئن في مسامعها. وانتصـــب أمامها شبح أعمالها وبدأ ينهش في روحها وحش أفكارهـــا وتبتلعها حيتان البحار وطال هذا التمزق وتشابك الصراعـات التي جعلتها وقودا لنار ملتهبة، وامتزج صوت ســـامر وهـــو يستغيث بهمسات سعيد المهددة وأخيرا حسمت أمرها علـــى أن تساعد سعيد وذهبت إلى المحامي وأطلعته على الأمر طالبـة منه أن يبذل قصارى جهده ليخفف عنه الحكم، نظر إليـــها المحامي بتعجب واستغراب ثم قال: في نفسه ما أغرب هـــذه القصة: هل يعقل بأن أما قتل ولدها بهذه الطريقـــة البشـــعة وتسعى لتخفف الحكم على قاتله إن هذا الأمر غريب.

إن الولد لأغلى شيء في الوجود فكيف لأم أن تتنـــازل عن حق ابنها، أيقظته من شروده على صوتها العميق وهـــي تقول له ماذا يا أستاذ هل تستطيع أن تخفف الحكـــم علـــى

زوجي، نفض رأسه المحامي وكأنه في رحلة بعيدة وأجاب دعيها لله والظروف، ربما ننجح بما نسعى إليه وبعد عدة جلسات حكم عليه...

وبعد الحكم عليه قابل زوجته فاطمة فقال لها الآن تأكدت من خيانتك لي لأن استجابتك لطلبي هذا معناه أنك خائنة لأنه لا يوجد أم تضحي بحق ابنها إذا لم يكن هناك أمر أقوى من هذا الحب.

الآن سأنام مرتاح النفس إلى أن أخرج من سجني وانتقم لي ولابني الذي قتلته بيدي، وكان صوته فيه الكثير من التصميم. فانهارت فاطمة وسقطت على الأرض وصلحت في صوت مخنوق يا ويلي فأنا استحق كل هذا العذاب والانتقام. ولكن مهما يكن فسامر هو ابنك يا سعيد وقد عاقبت نفسك قبل أن تعاقبني وصاح بها بصوت كالرعد ويلك مني يا مجرمة سأقتلك، ليعود إلى غرفته ليعيش مع صورة ابنه سامر وهو يموت بين يديه مدى حياته في سجنه.

فجر جديد

شيء يشبه الحلم يتغلغل داخل النفوس ليزرع فيها الأمل، وشمس ساطعة تتلألأ في ليالي بيروت الحالمة لتقبل خيوط الفجر الذهبية فتنام حسناواتها وأنغام الموسيقى تدغدغ خيالهن.

أما جبالها ووديانها ترقص على تغريد الحساسين، والصبايا العاشقات يتسابقن إلى حقولهن فتتشابك الأيدي مع من أحببن ويتسلقن الجبال ينسجن قصص حبهن تحت أوراق الأشجار الخضراء الباسطة أذيالها لاستقبال الحياة الجميلة وأمل تلك الصبية العاشقة للأرض والأشجار لا ترى سعادتها إلا حين تتسلق الشجر وتقطف الثمار وصغارها يركضون بين الزهور والرياحين.

هكذا كان لبنان قبل أن تمتد يد العملاء إلى لبنان وجماله وسحره لتلطخ بياضه وتعكر صفاءه ونقاء حياته، وتنشر جنود الأحزاب في أنحاء لبنان لحرقه وجعله رمادا و يأخذوا بعض قراه ليجعلوها مركزا للجنود.

ومن بين تلك القرى التي اغتصبوها وشردوا أهلها قرية الشوف الغافية بين أحضان الجبال والتي كانت أمل تملك فيها حقلا هو حياتها وسني شبابها.

وحين هجموا على تلك القرية كشبح مخيف وطلبوا منها الخروج من حقله وبيتها انتصبت لهم ورفعت يديها الممتلئة بالتراب وقذفته إلى وجوههم وقالت: كيف تطلبون مني ترك أرضي وبيتي؟ هذه الأرض التي سقيتها من دماء قلبي ثم لمصلحة من يكون هذا؟؟.

فصرخ الجندي غاضبا: كفي عن هذا الهراء وارحلي مع أهالي القرية بصمت. رمته بنظرة منكرة وقالت له بصوت يهزه الغضب: تريدون ترحيلنا من هذا الجبل كي تسهلوا دخول العدو إلى أرضنا؟ كم قبضتم ثمنا لتراب لبنان؟.

ثم بصقت في وجهه قائلة: تبا لكم من عملاء حقيرين تبيعون وطنكم وشرفكم من أجل حفنة من الليرات وأسيادكم يبيعون أمهاتهم من أجل كرسي يعتلونه.

فما كان من الجندي إلا أن هجم عليها ولكزها بعقب البندقية وهو يصرخ:

أخرسي أيتها اللعينة، إنك غبية لا تفقهين شيئا. ولا تعرفي ما الذي يدور في لبنان فرفعت نظرها إليه وقالت له بصوت مبحوح: ماذا يدور في لبنان سوى المؤامرة لتخريبه وتدميره ليتمكن العملاء والخونة من اعتلاء سدة الحكم والتصرف بلبنان وفق أهوائهم ورغباتهم. وأنتم.. أنتم كلاب لهم وأذناب لأسيادكم الخونة.

انحنى الجندي إلى الأرض وقبض على يدها وراح يهزها قائلا لها:

هذا الأمر ليس من شأنك، ولسانك طويل يحتاج إلى تقصير بل إلى قطع هيا إزم هذه الغرسة من يدك والتحقي بجيرانك وإلا دفنتك بهذه الحفرة بدلا من هذه الغرسة. ثم رماها على الأرض مرة ثانية. فاحتضنت التراب بين يديها وراحت ترفع رأسها شيئا فشيئا حتى وقع نظرها على نظر ذلك الجندي عندها قالت له من خلال دموعها الحرى: أن هذا البستان بستاني ولن أدعه للخونة والسفاحين ولن أدع يدكم القذرة تلوث هذه الأرض الطاهرة. صاح فيها الجندي بغضب: بل سترحلين وتتركي هذا البستان وسوف تتركي هذه القرية إلى الأبد. ثم ضغط على زناد بندقيته ليطلق عدة طلقات في الفضاء. فنهضت أمل ببطئ ورمته بنظرة حقد وازدراء وسارت بخطوات بطيئة ثم توقفت فجأة وانحنت على الأرض وملأت قبضتها من تراب الأرض وقالت بصوت متهدج:

أقسم سوف نعود ونسحق هاماتكم بأقدامنا ويعود لبنان كما كان بل وأروع مما كان ثم تابعت سيرها نحو الراحلين من أبناء قريتها الفارين من الدمار ولكن إلى أين؟ إلى نار أشد وأقوى ودمار أعتى وأفظع إلى نار بيروت المستعرة وهناك وضعوا في الملاجئ ليواصلوا رحلة الموت في بيروت التي غرقت في بحر من الدماء.

ازدحمت الملاجئ بالمهجرين الذين لم يجدوا يدا ممدودة لمساعدتهم فجميع الدول العربية واقفة أو تقوم بدور الكومبارس والمعارك الضارية تدور في لبنان فتسحق أبناءه

بالآلاف والمخطوفين من أبنائه ينالون شرف التشرد ليفترسهم الجوع والبرد القارس. أما الأطفال فكانوا يموتون في أحضان أمهاتهم هلعا وخوفا أمام وقوف العالم متفرجا وسد مسامعه وسمل عينيه حتى لا يرى ولا يسمع ماذا يدور في لبنان.

الأيام الأولى في الملاجئ كانت مليئة بالرعب والجوع والفزع عاشتها أمل مع أطفالها ومع من كان معهم في الملاجئ، كان زوج أمل مصاب بمرض القلب غير أن أمل راحت بعد ذلك تتحرك لمساعدة المصابين فتذهب لإحضار العقاقير الطبية والمواد الغذائية فتضمد جراح المصابين.

مضت شهور على وجودها في الملجئ بعدها تفرق هذا الحشد الهائل وراح كل واحد يبحث عن مسكن وبعد عناء شديد وجدت أمل بيتا في عمارة قديمة في شارع أركس. كانت الشقة غرفتين وصالون. راحت الأيام تمضي والأشهر تتوالى والحرب تزداد كل يوم ضراوة واشتعالا وأمل تعيش الرعب والخوف والجوع فكانت معاناتها من الجوع أشد وأقوى من الحرب حيث كانت لياليهم يمضون أغلبها تحت شرايين الدم عند زوج أمل فمات تاركا لها ثلاث بنات ليزيد الحمل عليها ثقلا. وراحت تواجه مصاعب الحياة لوحدها فبدأت السعي للحصول على مصدر عيش لتربي بناتها فانتسبت إلى إحدى الجمعيات الخيرية تقوم بنشاطات وأعمال خيرية فتحصل بعملها هذا على قدر بسيط من النقد ثم عثرت على دكان صغير بدأت تبيع فيه مأكولات الأطفال وهكذا

كانت تؤمن معيشة طفلاتها وطالت سنوات الحرب وعذاب أمل يزداد ويتفاقم وقساوة الحياة تترك فيها الأثر بعد الأثر كان تفكيرها لا ينقطع عن الحلم الذي رافقها طويلا بأن تكمل تعليم بناتها وتؤمن لهن مستقبلا عظيما وبعد ظلام شديد وليل طال أشرقت شمس لبنان بفضل ما قدمته سورية العزة العربية من تضحيات ومساعدات لا تقدر حيث انتهت الحرب ومع انتهائها كبرت بنات أمل وتخرجن من الجامعات فكانت فرحة أمل كبيرة ومشاعرها ملتهبة وهي ترى أحلامها تتحقق. بيروت انطفأت نيرانها المستعرة وبناتها أخذن مكانتهن العلمية وبدأت الأيدي الطاهرة تنهض بلبنان عمرانيا واقتصاديا ليستعيد عافيته.

وقفت أمل على شرفة منزلها وراحت تتأمل شمس بيروت وهي تشرق من جديد.

الاختيار المر

كمـــا الأرض بأشـــكالها وألوانهـــا.. اخضرارهـــا.. عطاءاتها.. كذلك المرأة إنها كالأرض دائمة العطاء.. عطـــاء بلا حدود..

وعلاقة الإنسان بالأرض أزلية..

ولدت سعاد بين سنابل القمح وضفـــاف الســـواقي.. ترعرعت ونمت وصارت شابة يافعة تداعبها الأحلام تحلـــم بشاب أسمر كسمرة التراب الذي احتضن طفولتها وضفـــر جدائلها.. كبر الحلم.. رويدا مع قامتها وظهور ملامح أنوثتها العطشى نهدان يتكوران يتفجر لهما ثوبها.. وشفتان نديتـــان.. كثمرة تنتظر القطاف..

وفي ليلة مظلمة حالكة.. انطفأ الحلم وغـــاب لونـــه الأرجواني.. حين اقتيدت كنعجة إلى بيت رجـــل وبـــدون مقدمات.. رجل صارت وجها لوجه معه داخـــل غرفـــة.. احكم إغلاقها..

صارت زوجة.. تعاشر إنسانا لا تربطها أي مشـــاعر نحوه بل إنه شكل إنسان فقط.. كل ما فيـــه يثـــير قرفـــها واشمئزازها وخوفها..

أين أحلام الماضي المشرقة.. من حاضرها المظلم القاسي.. مضت أعوام وصارت أما لثلاثة أطفال بنت وولدان.. أرضعتهم أحلامها بل بقايا أحلامها ورأت بهم تعويضا عن حرماها من إنسانيتها.. ورضيت بقدرها تتنفس الهواء بابتسامة عذبة من وجوه أطفالها.. وما كادت تستكين وتهدأ حتى اختطف القدر زوجها بحادث أليم.

وحدها مع ثلاثة أطفال تواجه الحياة وتقبل مرارتها وقسوتها بصمت.. كل ما كانت تستطيعه هو الإفاضة بالحنان مع أطفالها اليتامى.. وازدادت تعلقا بهم وخوفا من المجهول.. إنها لا تنسى كيف اغتيلت أحلامها في غفلة منها..

وآثرت ألا تتزوج.. وألا تسمع أحدا يحثها على الزواج.. وكلما خلت بنفسها تبكي بمرارة وحرقة ويفيق حلمها القديم.. الكامن في أعماقها.. تطلق الآهات حسرة ولوعة..

وذات يوم وفي غمرة أحزانها امتدت لها يد مسحت دموعها وداعبت شعرها بحنان وسمعت ما أدفأ قلبها فدبت بها الحياة.. التقت حلمها القديم.. لم تصدق أن الحلم صار حقيقة واستجابت في غفلة من انسجامها.. ووجدت نفسها.. في قلب الحب.. تتساءل كم مضى من الزمن على وحدتها.. لقد صار أولادها شبابا..

أحبت بكل جوارحها وانساقت بعواطفها ومشاعرها المكبوتة سنوات لم تعد تذكر كم عددها.

ولم يهنأ قلبها.. القدر ضدها للمرة الثالثـــــة.. حـــين فاجأها ابنها ذات يوم قائلا..

أماه.. لماذا لم تصرحي برغبتك بالزواج..؟
لماذا.. لماذا تسببت لنا بهذا العار والذل..
لو قلت بأنك راغبة بالزواج لزوجتك..
كيف قبلت على نفسك أن يتظاهر هذا الإنسان بأنـــه يدخل بيتنا محبة بي. أكنـــت تخدعيـــني.. واســـتنكرت الأم المسكينة الحالة كلها تدافع عن نفسها تقدم المبررات. لتبعـــد الشبهة عن نفسها قالت بصوت مرتجف..

– صدقني يا بني إنه يأتي فقط من أجلك، وليس بيـــني وبينه أي علاقة..

فأجابها بنبرة قاسية كلها احتجاج:

– إذا لا أريده أن يدخل بيتنا ولا أريـــدك أن تقابليـــه أجابته غاضبة:

– أتريد أن أطرده؟ لماذا؟ ماذا فعل لك؟؟.. لا أجـــد سببا لطرد إنسان لم نر منه إلا الخير..

قال الابن محتدا.. أي خير هذا؟ لماذا تهتمي بأمره؟.

واحتد الجدال بينهما حتى تحول إلى مشاجرة.. عندمـــا فرض عليها أن تختار إما هو أو ذاك الرجل..

هيا يا أمي قرري الآن.. لو أردتنا نحن لكنا لك مثـــال الطاعة والاحترام ولن نحيجك لأي شيء.. وإن فضلته علينا.. فسآخذ أخوتي ولن تري منا أحدا..

وبلغ الخبر الأقارب فبادروا لحل الموضوع دون فائدة فابنها لا يعارض زواجها ولكنه يرفض علاقة أمه بهذا الرجل بالتحديد حتى ولو أراد أن يتزوجها.. لأنه خائن.. كان هذا أمرا صعبا على مشاعرها وقلبها وتأرجحت في دوامة القلق تحاول أن تهتدي لقرار تارة تجد قلبها قلب أم يحب فلذة كبده وتارة ترى الزمن وهو يبعد أولادها بعد سنوات قريبة كل منهم إلى عالمه الخاص. ومصيره.. وتصل إلى أن لا فائدة ترجوها من أولادها..

وذات يوم جمعتهم حولها وفاجأتهم بقرارها الذي كان له وقع الصاعقة المدمرة.. على قلوب أولادها..

لقد آثرت حبيبها عليهم جميعا وتركتهم وهم في أحوج حال لها..

تزوجت.. وانقطعت صلتها بأولادها ونبذوها.. ولم تحاول السؤال عنهم بضعة أشهر.. وذات يوم صحت من غفوتها باكية حزينة خائبة الأمل. فزوجها تحول لإنسان شرير قاسي القلب بخيل يعاملها معاملة سيئة.. لقد أيقنت أنه تزوجها لغاية في نفسه ولم لا وقد كانت صاحبة مزارع وأملاك.. أجل تركت كل شيء وسعت نحو السعادة فكانت السعادة وهما..

لم تعد تصطبر فغادرت بيتها لا تملك مئة ليرة.. الحياة قاسية ومتطلباتها كثيرة.

النذم يعصر قلبها.. لا تستطيع العودة لأولادها بـــاتت وحيدة مقهورة.. ووصل بها الحال لأن تعمـــــل خادمـــة في مستشفى.. كم كانت لحظة قاسية عندما شرعت في المســح تنهدت بمرارة.. أين أنتم يا أولادي..

ليتني مت قبل أن أترككم.. بلا رحمـــة ولا شــفقة.. أتصدق يا ولدي؟ أمل صارت خادمة تعمل لتعيل زوجـــها. وتقتات من الفضلات.. لا تملك أن تقول كلمة لا.. لقـــد انكسرت أعماقها وصارت حطاما..

الفهرس

صدر للمؤلفة

1- امرأة لاتعرف الخوف	(رواية)	دار الكنوز الأدبية
2- رحلة في قطار العمر	(مجموعة قصصية)	دار الكنوز الأدبية



جرس الهاتف



